Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

استخدام المقاربة الإثنوغرافية في بحوث جمهور وسائل الإعلام

Using Ethnography Approach in Audience Research

بلغيثية سميرة
Belghitia samira
Belghitia_samira@yahoo.fr
المركز الجامعي غليزان
University of RELIZANE

تاريخ الاستلام : 2018-09-13

تاريخ القبول : 2018-11-22

ملخص :

تهدف الدراسة إلى إبراز أهمية وخصائص التوجه المنهجي لبحوث جمهور الميديا نحو المنظور الإثنوغرافي الذي تصدر بحوث الاتصال الجماهيري منذ ثمانينيات القرن وتكثف استخدامه مع تطور تكنولوجيات الإعلام والاتصال في القرن الحالي متجاوزا حدود التوجه الامبريقي الذي حصر زاوية فهم السلوك الاتصالي في أرقام وإحصائيات واختزل العملية الاتصالية وفق رؤية مهندسي الاتصالات في مرسل ورسالة ومستقبل وتأثير دون الاهتمام بسياق تواجد هذه العناصر ، حيث يولي التوجه الاثنوغرافي في بحوث الجمهور الاهتمام بالسياقات المختلفة لتلقي الرسائل الإعلامية ، معززا من قدرة الباحث على فهم سلوك الأفراد وثقافة الجماعات وكيفية تفاعلها مع وسائل الإعلام والاتصال ، من خلال معايشة الباحث عن قرب لهذه الجماعات الثقافية مستخدما مجموعة من الأدوات المنهجية على غرار المقابلات غير الرسمية، والملاحظة بالمشاركة.

الكلمات المفتاحية: اثنوغرافيا، بحوث الجمهور، الميديا، السياق.

Abstract :

This study aim to show the importance and the characteristics of methodological orientation of research towards an ethnographic perspective, which has publishing Mass Communication research since eighties of the past century, and increase of using it with the development of Mass Communication technologies in the current century exceeding the limitation of the empirical orientation which has limited the aspect of understanding the communication behavior in numbers and statistics, it also shorthanded the communication process according to the vision of the communication engineers in a sender, receiver, message and effect regardless of context of presence of this elements, while in Ethnography Approach it takes in consideration the different context of receiving the media messages in audience research, it enhance the researcher's ability to understand the behavior of individuals and groups culture and how it interact with the mass communication, through making the researcher live closely to this cultural groups using sets of methodological tools such as unofficial interviews and observation by participation.

Key Words: Ethnography, Audience Research , Media, Context.

مقدمة:

برزت الحاجة لظهور دراسات جمهور وسائل الإعلام الجماهيرية في العقد الثالث من القرن الماضي استجابة لحركة المنافسة والتسابق الشديدين بين المؤسسات الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا وأوربا للهيمنة والتوسع ، وفي سياق اجتماعي يعتقد بالتأثير المباشر والبالغ لوسائل الإعلام على سلوك الجمهور وتوجهه وفق مصالح من يتحكم في إدارتها عن طريق انجاز مراكز بحث متخصصة لبحوث تستهدف معرفة حجم هذا الجمهور ، سماته الاجتماعية والنفسية، تستغل نتائجها لتكييف رسائلها مع الأهداف التجارية والدعائية لمالكي وسائل الإعلام والمعلنيين ورجال السياسة.

وإذا كان التوجه الامبريقي الأمريكي في بحوث الاتصال الجماهيري تميز بالكمية وتهميش دور الجمهور، فإن التوجهات الجديثة في بحوث الجمهور ابتداءا من ثمانييات القرن الماضي، اهتمت بدراسة دور المتلقي الفاعل في العملية الاتصالية ومختلف التأويلات التي ينتجها للخطاب الإعلامي ومن أشهر الباحثين في ميدان الاتصال الذين قاموا بتوظيفه نذكر بعض أعمال "دافيد مورلي" الذي تبنى التوجه الإثنوغرافي بعد ما كان يوظف في ميدان الدراسات الاجتماعية، ،حيث ركزت على دراسة المشاهدة التلفزيونية داخل العائلة كوحدة أساسية للتحليل، ومع تعدد التكنولوجيات المنزلية في الفضاء الاتصالي الجديد، أدى إلى الاهتمام بدراسة السلوك الاتصالي للجمهور والتفاعلات الممكنة مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها، باستخدام المقاربة الإثنوغرافية، التي من شأنها أن تساعد على فهم ظاهرة التلقي المعقدة، والإهتمام بطريقة إدماج هذه التكنولوجيات في الفضاء الأسري اليومي، والكيفية التي تعمل بها كل عائلة في إدارة فضائها الإجتماعي والتكنولوجي.

2. ماهية المقاربة الإثنوغرافية:

أولا: مفهوم الإثنوغرافيا

هي من حيث الأصل اللغوي كلمة يونانية مركبة من لفظة "اثنوس" أي الأقلية، ولفظ "كرافوس" أي الوصف والتصوير ليصبح معنى الإثنوغرافيا هو الدراسة الوصفية للشعوب، فالبحث الإثنوغرافي يسعى إلى "جمع المعلومات رصدا في المنطقة التي تعنيه وفي عين المكان بالمشاركة والملاحظة، وتزعم الاثنوغرافيا بعد جمع المعلومات الوصول إلى تصنيف وتقديم للواقع كما هو، كما لوحظ في عين المكان بواسطة عاداته وتقاليده، وأعرافه، ولا يقف في رصده بالتالي عند حد الأنشطة المادية للشعب أو الشعوب التي يدرسها وإنما يتجاوزها إلى شعائرها الروحية وقيمها المعنوية في زمان ومكان معينين"[1]

كما يرى **stephan beaud** و **florence weber** أن **البحث الإثنوغرافي**[2] بعتمد على وصف الأماكن، الأحداث، الأشخاص، والأشياء، ويحتاج الباحث للدقة، وللتفاصيل الصغيرة، والتأريخ له, ويتفق أغلب الباحثين على أن هناك علاقة معرفية تكاملية وعضوية بين الانثربولوجيا والاثنولوجيا والاثنوغرافيا، يصعب فصل الواحدة عن الأخرى أحيانا حيث أنها "لا تشكل ثلاثة علوم مختلفة بل ثلاثة مراحل متتابعة وبشكل أدق ثلاثة تصورات مختلفة لبحث واحد"[3] هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالمعارف الثلاثة تؤدي إلى بعضها البعض في كثير من الدراسات الاثنوغرافية وتنمو اثنولوجيا لتصل إلى ذروة المسألة الأنثربولوجية.

ثانيا: البدايات الاثنوغرافية وتطورها في دراسات الجمهور

مع أن جذور الوصف الاثنوغرافي مفقودة لقدمها، فإن معظم الملاحظات والتأويلات للمجتمعات الإنسانية قد استمرت تتناقل بطريقة شفوية، فقد أتيحت فرصة الاحتفاظ بمدونات لبعض الأوصاف المبكرة، واستمرار تسجيل تلك الملاحظات في وثائق بصورة ملحوظة مع الرحلات الأوروبية والاستكشافات والاستقصاء، ومع بداية القرن الخامس عشر (15) ولعدة مئات من السنين تالية كانت أوصاف الممارسات الثقافية تكتب إلى حد بعيد خلال رحلات الاستكشاف والنشاطات البشرية، وإنشاء الحكومات والمراكز الاستعمارية، ويرجع في هذا إلى كتاب "**هاول**" بعنوان "تعليمات في الأسفار الخارجية"، وهو كتاب روى حول -الاثنوغرافيا والاثنولوجيا في القرن السادس عشر(16).

وابتداءا من عام 1925 أي قبل الحرب العالمية الثانية أصبحت الدراسات الاثنوغرافية تكون نشاطا تخصصيا مستقرا، كما كان هناك تحول من الاهتمام المسيطر بجمع المادة وتراكمها إلى التحليل الأكثر عمقا لأنماط ثقافية معينة، ونذكر كتابات مالينوفسكي "مجتمع الأرجنوتس في جنوب المحيط الهادي"، كما أدى الاهتمام المتزايد بالمضامين الثقافية إلى الاهتمام بدور الباحث الاثنوغرافي في موقف البحث الحقلي، وإلى مزيد من التقدير الواعي للطريقة التي يتم بواسطتها تسجيل المادة الحقلية.[4] وقد ساعد هذا النمو الذي تحقق في طرق البحث الاثنوغرافي على القيام بدراسات مقارنة، والتوسع بطريقة ذات دلالة في الاكتشافات القائمة حول المكونات الثقافية، وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بدأت الاثنوغرافيا تجتذب مزيدا من الاهتمام النظري والمنهجي، ويذكر هنا على وجه الخصوص الاهتمام المتجدد والمتسع بمشكلة التصنيف التي احتلت أهمية نقدية، كما كان هناك تركيز متزايد على أنساق الاتصال والنماذج البنائية مثل كتاب "ليفي ستروس" بعنوان "الأنثربولوجية البنائية" الذي صدر في سنة 1958، كما

كان هناك اهتمام مركز بتنمية وسائل أكثر فاعلية في حصر المتغيرات الثقافية والشخصية في المواقف الحقلية الواقعية، ويمكن القول بأنه في بداية هذا الطور من أطوار نمو الاثنوغرافيا كان هناك تزايد ملحوظ في عدد الباحثين الاثنوجرافيين المتخصصين، في مصادر الدعم وفرص الدراسات الحقلية.[5]

فالباحث الاثنوغرافي هو باحث أنثربولوجي يحاول على الأقل في جانب من عمله التخصصي أن يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع معين، ومن الناحية المثالية فإن هذا الوصف الاثنوغرافي يتطلب قضاء فترة طويلة في الدراسة العميقة، كما يتطلب الإقامة في جماعة صغيرة محددة تماما، ويتطلب المعرفة باللغة التي تتكلمها تلك الجماعة، والاستخدام الواسع المدى للطرق الفنية في الملاحظة، بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة بأعضاء الجماعة المحلية، والمشاركة المباشرة في بعض نشاطاتها.[6]

بداية من الثمانينات بدأ المنهج الاثنوغرافي[7] يحتل الصدارة في أبحاث الجمهور وتكثف استعماله منذ مطلع القرن الحالي، ويتمثل في دراسة السلوك الاتصالي للجمهور والتفاعلات الممكنة مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من مختلف الوسائط المتوفرة في الفضاء الاتصالي الجديد الذي تشكل الأنترنيت أهم وسائطه على الإطلاق، وهذه الوسيلة أصبحت تنافس التلفزيون، كأداة تكنولوجية منزلية جديدة، وتحول، بالتالي، انشغال الآباء والمربين، إلى التأثيرات المحتملة لهذه الوسيلة الغازية بقوة خارقة وبسرعة فائقة في مختلف مناحي حياة الناس.

وهذا الفضاء الاتصالي الجديد الذي هو، في الحقيقة، امتداد للفضاء الناجم عن الاستعمال المكثف للتكنولوجيات المنزلية، تعميم الاختيارات المنهجية الاثنوغرافية للتوجه الجديد في أبحاث الجمهور، وهي تندرج، عموما، فيما أصبح يعرف بالمنهجية الاثنوغرافية **(ethno-methodologie)** في دراسات التلقي، ولقد تكثف استعمال الاتجاه الاثنو-منهجي في دراسات الجمهور على ضوء عولمة الرسائل الإعلامية المتسارعة والمتوسعة بفضل البث التلفزيوني المباشر عبر السواتل والأنظمة الرقمية والقنوات المشفرة وتلفزيون الأنترنيت، الذي يتوقع أن يحل محل القنوات المشفرة خلال العشرية القادمة.

كما يرى "رامسوامي" أن هناك صنفين من دراسات الجمهور الشامل الحديثة بدأت منتصف العشرية الأولى من القرن الحالي، تركز على دور المجموعات الإثنية: الصنف الذي أعاد بعث أطروحات الامبريالية الثقافية والإعلامية، ويحاول إعادة صياغتها في إطار التيارات المناهضة للعولمة، والصنف الذي يوجه البحث من جديد إلى دور وسائل الإعلام في تكوين تصورهم لهوياتهم الإثنية في بيئاتهم الجديدة.

2. منهجية البحث الإثنوغرافي وتطبيقاتها في الدراسات الإعلامية:

أولا: أسس البحث الإثنوغرافي وأدواته:

يقوم البحث الإثنوغرافي على تواجد الباحث بميدان البحث في المجتمع المدروس تواجدا مستمرا، قد يصل إلى عدة أعوام، ويقوم الباحث خلال إقامته في مجتمع البحث بملاحظة سلوك أعضاء المجتمع والاندماج فيه اندماجا يمكن عن طريقه أن يعرف بقدر الإمكان كيف يتحدث ويفكر ويعمل كأحد أعضاء ثقافة ذلك المجتمع، والبحث الإثنوغرافي الجيد حسب "مارسال موس" **Marcel Mause** هو الذي يستغرق أربع سنوات في مكان محدد، والبحث الإثنوغرافي المعمق، هو الذي يعتمد على الملاحظة العميقة والكاملة.[8]

وبالنسبة ل "مارسال موس" **Marcel Mause** ، لدراسة أي مجتمع ينبغي دراسة مايلي:[9]

- مورفولوجيا اجتماعية: فكل مجتمع يتكون من سكان، ودراسة السكان في الميدان يطلق عليه مورفولوجيا اجتماعية، التي تحتوي على ديمغرافيا وجغرافيا الإنسان، ونضيف لها تكنو مورفولوجي.
- فيزيولوجيا اجتماعية: تدرس الظواهر في حركيتها وتطورها واستمراريتها سواء كانت تقنيات، جماليات، اقتصاد، قانون، الدين، العلوم، الهندسة المعمارية.
- ظواهر اجتماعية: لغة، علم السلوك أو الأخلاقيات الجماعية، ظواهر وطنية، ظواهر دولية، فمثلا ظاهرة" **nomadism**" تعتبر ظاهرة محلية وطنية، والحداثة تعتبر ظاهرة دولية.

ويتطلب البحث الإثنوغرافي مشاركة كلية للباحث، وانفتاح ذهني ومهارات وتدريبات على تقنيات الملاحظة واستعمالها في مختلف التحقيقات الاجتماعية، كما يحتاج أحيانا استثمارا في الوقت والجهد لتعود الدارس على مجال البحث والاندماج فيها، وإلى جانب المشاركة الكلية والملاحظة المباشرة والمستمرة للسلوك اليومي، قد يلجأ الباحث إلى تقنيات المقابلة على مستويات مختلفة والحوار ومجموعة أخرى من الإجراءات لكشف الارتباطات العلائقية بين مختلف الأفراد والجماعات المدروسة من بنوة ومصاهرة ومعتقدات وطقوس محلية من شأنها أن تساهم في تفسير مظاهر التمايز والتماثل، والمتنافرات والتقاطعات في ممارسات الحياة اليومية.

كما أنه لا يمكن الحديث عن النزول الميداني وتبني أسلوب الملاحظة أو الملاحظة المشاركة أو المقابلة دون الإشارة إلى المعرفة اللغوية أي معرفة لغة الأهالي المبحوثين، وقد أثار هذه النقطة عدد من الباحثين الأنثربولوجيين والذين اعتبروا المعرفة اللغوية شرطا أساسيا لكل باحث ينوي النزول إلى الميدان، لأن جهل لغة الأهالي من قبل الباحث تؤدي إلى عدد من المشاكل التي تسيئ إلى الباحث وإلى موضوعه، حيث وجد نفسه مضطرا لطلب خدمة ومساعدة مترجمين أو دليل الذي هو في أغلب الحالات من سكان المنطقة وعضو من الأهالي المبحوثين، غير أن هذا الإجراء قد لا يؤدي دائما دوره العلمي كما يجب أن يكون، فالمترجم قد يعجز عن نقل كل الحقائق الثقافية والاجتماعية والنفسية والعقائدية للمبحوثين نقلا صادقا وأمينا، فكثيرا ما يلجأ إلى الحذف أو التغيير أو الإضافات من إبداعه الخاص والشخصي، فيبدع مادة ليست لها أي علاقة بالمبحوثين ونسبها إليهم، فيتبناها الباحث ويدونها ويعتمدها في دراسته، وهذا أمر مرفوض، خاطئ وخطير، ومن هذا المنطلق أكد الباحثون على ضرورة تعلم الباحث لغة الأهالي لأنها هي الوحيدة التي تلهمه تأشيرة الاندماج الصادق والطبيعي بين الأهالي وتمكنه من جمع مادته مباشرة من أفواه ومصادر أصحابها دون وسيط.

وفي السنوات الأخيرة لقد عرف البحث الميداني تطورا كبيرا وذلك لاستعانة الباحث أثناء تواجده في الميدان بالوسائل السمعية البصرية المتطورة التي سمحت له بتسجيل كل شاردة وواردة وكل ما عجز أو غاب عن تسجيله الكتابي أو عجزت ذاكرته استيعابه وتذكره، لقد بدأ يستعمل وسائل متعددة و متطورة في التسجيل الصوتي إذا كان الموضوع أساسا صوتيا أو التسجيل الفوتوغرافي، إذا اقتضى الأمر لاستعمال الصور وتصوير بعض الأحداث أو بعض السلوكيات سواء صورة جامدة أو تسجيل الأحداث والممارسات في وقتها الآني، في صورة فيلم يعود إلى مشاهدة ورؤية الأحداث من جديد وهي تتحرك وقتما شاء وأينما شاء.

لقد قدمت هذه الوسائل السمعية البصرية خدمات مهمة للباحث الميداني وأمدته بطاقات موضوعاتية غزيرة كما ساعدته في تسيير وقت البحث واقتصاد طاقاته التي لم يعد يستثمرها في العودة إلى الميدان في مناسبات مختلفة لرؤية نفس الحدث أو المشهد، فيكفيه إعادة سماع التسجيل الصوتي أو إعادة مشاهدة التسجيل الفوتوغرافي أو الفيلم ليعيش ميدانه دوما وأبدا قريبا منه وحيا يتحرك أمامه.

كما تعددت أدوات جمع المادة الحقلية وتخزينها واسترجاعها وإعادة ترتيبها والتعبير عنها واستخدامها مع مظاهر التقدم التكنولوجي وفيما يلي أهم هذه الأدوات:

- ✓ **الملاحظة:**

تعتبر الملاحظة من أهم وسائل البحث وجمع المعلومات "فقد استخدمت في جمع المعلومات لدى جميع الشعوب، بدائية كانت أو متحضرة، في الماضي أو في الحاضر، وذلك من أجل الحصول على المعلومات عن الأشياء والمواقف المحيطة بهم والتعرف على ظواهر الحياة ومشكلاتهم"[10]، فينزل الباحث الإثنوغرافي إلى الميدان ويلاحظ الناس ويتابع أنشطتهم المختلفة في كل مكان وفي كل زمان، وفي أوقات مختلفة، فالباحث يقف موقف الملاحظ والمعاين والمشاهد، يرى ويسمع ويحس ثم ينقل ويسجل ويدون في كراسته، غير أن الملاحظة قد تكشف في بعض الحالات عن قصورها ومحدوديتها مردودها ولا تفي بالغرض العلمي المطلوب، الأمر الذي يفرض عليه البحث عن وسيلة بحث أخرى وعن إجراء تقني أكثر فاعلية حتى تقترب أكثر فأكثر من مادة موضوعه فيتعدى مستوى الملاحظة ليمر إلى مستوى الاندماج الكلي مع الأهالي حيث يشاركهم نشاطهم اليومي كعضو ينتمي إلى جماعتهم، وقد تصل به درجة الاندماج إلى حالة يوشك أن يكون فيها باحثا وموضوع البحث في نفس الوقت، فتتحول في هذه الحالة الملاحظة البسيطة إلى الملاحظة المشاركة أو الملاحظة بالمشاركة.

- ✓ **الملاحظة بالمشاركة:**

يعرفها الباحث "عاطف وصفي" بأنها: " بكل بساطة مشاركة الباحث في النشاط الاجتماعي والثقافي الذي يقوم به أهالي منطقة الباحث هذا من جهة، ومن جهة ثانية الحضور الشخصي والدائم والمستمر بينهم طيلة مدة إنجاز البحث وجمع مادته"[11]، غير أن الباحث يمكن أن يفقد في الكثير من الأحيان صفات الباحث تحت ضغط العلاقات الإنسانية التي أصبحت تربطه بالأهالي نتيجة قوة الاندماج مع المبحوثين ومن ثمة فإن " دور الباحث أثناء قيامه بالملاحظة يجب أن يكون ثانويا، وأن مشاركته في الأنشطة لا تعني أنه أصبح واحدا من أعضاء المجتمع، بل يجب أن يتذكر دائما أن الغرض من المشاركة هو ملاحظة المجتمع من الداخل".[12]

إلا أن الملاحظة بالمشاركة كأداة للبحث الميداني عملية صعبة ومعقدة وشاقة، تفرض على الباحث شروط وإجراءات مادية ومعنوية وسلوكية قد لا يقدر أحيانا على تحملها والتكفل بها من حيث الطرح الثقافي والمعرفي والاجتماعي والنفسي والاقتصادي والعقائدي، فإن الباحث "يذهب إلى المجتمع الذي يدرسه ليعيش فيه فترة من الزمن لاكتساب ثقة الأفراد وجمع المعلومات اللازمة ولا يبدأ الزيارة بالدراسة وتوجيه الأسئلة، وإنما يتعلم أسلوب الحياة الجديدة، فعليه أن يتكلم لغتهم ويستخدم في تفكيره نفس التصورات أو المفاهيم السائدة ويشعر

بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم، ومن هذا المنطلق، تفرض الملاحظة بالمشاركة على الباحث من حيث الطرح التقني والإجرائي خطوات صارمة، حيث يبدأ، أول ما يبدأ به بعد اختيار موضوعه، تحديد الميدان والتعرف على الأهالي وأصلهم ونسبهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ثم الاقتراب منهم تدريجيا حتى ينال رضاهم وثقتهم وقدرتهم على قبول اندماجه بينهم دون عنف أو استعمال الكذب أو الحيلة أو التسرع، ولقد أكد الباحثون في مادة الميدان على ضرورة احترام هذا السلوك الاندماجي الهادئ والتدريجي.

✓ **المقابلة:**

تعد المقابلة من الإجراءات المهمة التي قد يعتمدها الباحث في جمع مادة بحثه وبالتالي فإن شأنها من شأن الملاحظة والملاحظة المشاركة حيث يتجه الباحث نحو أناس يقابلهم ويتحدث معهم حول موضوع بحثه وكل ما يتعلق به بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة وذلك حسب الظروف والحالات النفسية والثقافية والاجتماعية للمبحوثين.

إن المقابلة "بوصفها وسيلة لجمع البيانات والمعلومات يعتمد فيها الباحث على المحادثة الموجهة مع الآخرين من أفراد مجتمع البحث الذي يقوم بدراسته، وتعتبر المقابلة مصدرا مهما من مصادر المعلومات بالإضافة إلى أهمية استخدام المقابلة مع الإخباريين بهدف تجميع أكبر قدر من المعلومات وإلقاء الضوء على بعض الجوانب التي توصل إليها الباحث من خلال عملية الملاحظة بالمشاركة".[13]

نستنتج أن المقابلة كإجراء بحثي تختلف عن المحادثة العادية ولمنهجية يكون قد حددها مسبقا الباحث من أجل إنجاح بحثه وتحقيق أهدافه، كما يمكن للباحث أن تواجهه عدة صعوبات أثناء إجراء المقابلة يجب أن يأخذها بعين الاعتبار ويحسب لها حسابات معرفية ونفسية واجتماعية وثقافية ومنها:

- ضرورة اختيار الأشخاص الممكن مقابلتهم والتحاور معهم ومحادثتهم محادثة علمية ولأهداف علمية، أي لابد وأن يتم اختيار المبحوثين الذين تتوفر فيهم الثقة، والصدق والمعرفة الواسعة بشؤون المنطقة والأهالي.

- ضرورة اختيار الأسئلة الهادفة والمفيدة والمثمرة والواضحة والتي لا تحرج المبحوث هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد وأن تكون الأسئلة ذات الصلة الوطيدة بموضوع البحث، وهنا تظهر قدرة الباحث على أن يحدث المبحوث ويثير اهتمامه متدرجا بالأسئلة، من السؤال البسيط إلى المركب، ولا شك أن طرح بعض الأسئلة المحرجة أو الحساسة تربك المقابلة تماما وتؤثر سلبيا على سيرها، فلابد أن يكون لدى الباحث القدرة واللياقة في طرح مثل هذه الأسئلة.

- ضرورة اختيار وقت المقابلة، أي الوقت الذي يناسب خاصة المبحوث ويكون حرا، ومتفرغا للمقابلة والمحادثة بعيدا عن العمل أو عن أي انشغال آخر والذي يتحكم في حضوره للمقابلة أو أن زمن المقابلة قد يزعجه ويمنعه من أداء بعض الواجبات أو بعض الأعمال الخاصة به.

- ضرورة اختيار مكان المقابلة، بعيدا عن أنظار الناس الذين قد يزعجون المبحوث بضجتهم أو أن المبحوث نفسه قد يتضايق من حضورهم ويكون في وضعية حرجة ولا يفصح عن مكبوتاته أو يريد أن يكتم بعض أفكاره خوفا من الحضور أو حياء منهم.

- ضرورة احترام الحالة النفسية للمبحوثين وعدم إجبارهم على المقابلة حيث "قد يحدث في كثير من الأحيان أن تقطع المقابلة لأسباب وظروف طارئة، كعدم رغبة المبحوث في استكمال المقابلة بسبب نفوره من الموضوع أو مله من تعدد المقابلات أو غير ذلك من الأسباب".[14]

على الباحث أن يوسع في مجال ودائرة مبحوثيه وينوع ويكثر من المقابلات وتعدد واختلاف المبحوثين ومقابلاتهم حول الموضوع الواحد قد يكشف عن الاختلافات أو عن الأفكار الخاطئة والمزيفة التي قد تكون من وحي وإيداع المبحوث أثناء المحادثة، فعن طريق المقابلة يقوم الباحث بمراجعة المادة المستوحاة من الملاحظة فضلا عن الحصول على معلومات محددة عن جوانب معينة من السلوك، كما يمكن استخدامها في حث الإخباريين وتشجيعهم على أن يتحدثوا أو أن يتغلبوا على أحجامهم في مناقشة نقاط معينة من خلال طرح بعض الأسئلة المفتوحة أو المقننة.

ويمكن القول أن المقاربة الإثنوغرافية مهمة جدا في الأبحاث الاجتماعية عامة، وعلوم الإعلام والاتصال خاصة، وذلك لقدرتها على تجاوز سلبيات استعمال تقنية الاستمارة في جمع البيانات وصعوبات اختيار العينة التمثيلية، التي واجهت معظم الباحثين في أبحاث عينة الدراسة، وهو أيضا تحدي يواجه الباحثين في مجال الجمهور .

ثانيا: نماذج لبحوث إثنوغرافية الجمهور

خطت الدراسات الإعلامية خطوة متقدمة صوب عمليات التلقي وتطورت تطوراً كبيرا، من خلال عناية النماذج الاتصالية بعملية تلقي الخطاب وفك الرموز اللغوية للرسائل المرسلة عبر الوسائل الاتصالية إلى المتلقي، الذي اهتمت به النظرية النقدية وعلوم السيميولوجيا وتحليل الخطاب والاتنوغرافيا.[15]

ويعد ستيوارت هال (**Stuart Hall**) ممن أسسوا لتحليل التلقي النشط في الدراسات الإعلامية من خلال مقاله الشهير حول التشفير وفك تشفير مضامين الخطاب التلفزيوني، حيث يرى أن سيرورة الاتصال التلفزيوني تمرّ بأربع مراحل مختلفة تتمثّل في: الإنتاج والتوزيع والاستهلاك وإعادة الإنتاج، فالجمهور بالنسبة ل**ستيوارت هال** يمثّل مصدر الرسالة والمتلقي في الوقت نفسه، ذلك أنّ لحظة التشفير لا تحيل إلى التصوّر الّذي تحمله المؤسسة الإعلامية وليس إلى توقّعات الجمهور فقط، وإنمّا إلى المعايير التي تندرج ضمن العمل المهني ومن ثم فالممارسة الإعلامية وفق "هال" هي بناء اجتماعي معقد للمعنى الذي هو في الأخير نتاج ثقافة المتلقي.[16]

لقد لاحظ روبرت آلان (**Robert Allen**) أنه بالإمكان تطبيق نظرية القراءة على التلفزيون، حيث استبدل القارئ الضمني، بالباصر الضمني في ميدان التلقي البصري، وهو ذلك الشخص الذي سيحضره منتج الرسالة التلفزيونية في عمله، ويكون مدرجا في الأعمال التلفزيونية القائمة على الخيال كالدراما الفيلمية مثلا، وبعبارة أخرى، يستحضر المنتج في الرسالة التي ينتجها نوع المشاهد الذي يتصوره، أي يكتب لأشخاص يفترض أنه يعرف قدراتهم على الفهم والتأويل[17].

ومن ثم يؤرخ العقد الثامن من القرن الماضي لمرحلة أخرى من تطور بحوث الإعلام الجماهيري، تميزت بظهور أنموذج جديد انتقلت فيه الدراسات من محور التأثير ودراسة ماذا تفعل وسائل الإعلام بالجمهور الذي التصقت به خاصية "السلبية المطلقة" أمام "القوى الخارقة" لوسائل الإعلام إلى ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام في محور التلقي الذي أعاد الاعتبار إلى الجمهور كطرف نشط فعال ومؤثر ومشارك في إعداد الرسائل الإعلامية، مروراً بتجزئته وتحليله جزئيا وإثنوغرافيا في سياق الاستعمال المنزلي لوسائل الاتصال في المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية، وهذا ماقام به **David Morley(1986) في** دراسة تحت عنوان "**Family Teleision**" لاكتشاف مختلف التفاعلات داخل الأسرة كوحدة قاعدية للتحليل، حول شاشة التلفزيون في السياق الطبيعي لتلقي المواد التلفزيونية في الفضاء العائلي، وتم إنجازها على 18 أسرة من العرق الأبيض، في جنوب لندن، وتتكون كل واحدة من شخصين بالغين، وطفلين أو أكثر دون سن الثامنة عشر، وتملك مسجل فيديو، وأغلبيتها تنتمي إلى الطبقة العاملة أو إلى البرجوازية الصغيرة، وقام "مورلي" بإبراز المكانة التي يحتلها التلفزيون في النشاط الترفيهي لمختلف الأسر، وإظهار التوزيع غير المتكافئ لسلطة اتخاذ القرار بين الجنسين بشأن البرامج التي تشاهد وأوقات المشاهدة، ومختلف سلوك تلقي البرامج التلفزيونية، كما استخلص "مورلي" عدة نتائج أهمها:[18]

- ينفرد الرجال غالبا بسلطة اختيار البرامج.
- تستخدم النساء التلفزيون كمادة للدردشة، في حين يرفض الرجال التحدث عنه.
- تفضل النساء مشاهدة الدراما وبرامج الخيال.
- يفضل الرجال مشاهدة برامج الرياضة، والنشرات الإخبارية.
- الاختلافات بين أفراد الجمهور ليست فقط سيكولوجية أو ثقافية بالتعود، وإنما أيضا إلى اختلافات إثنية.

فكانت الإنطلاقة لتغيير توجهات أبحاث الجمهور واستخدام المقاربة الإثنوغرافية، فنجد الباحث **باريوس Barrios في** دراسته الإثنوغرافية لمشاهدي الأوبرات الصابونية اللاتينية (1988)، والتي أجريت في فنزويلا على 13 أسرة، على الطريقة الإنشائية المتبادلة التي تتشابك بها مشاهدة التلفزيون مع تنظيم الحياة الأسرية، فقد أظهرت الدراسة اندماج مشاهدة التلفزيون داخل الروتين اليومي للحياة الأسرية- الاستيقاظ من النوم في الصباح، أوقات تناول وجبات الطعام، أوقات أداء الواجبات المدرسية، العودة من العمل...الخ. وكانت النقطة ذات الأهمية الخاصة، هي الحيز الطقوسي المقدس المنشأ حول فترتي عرض المسلسلات في التلفزيون والذي كان حدوث أية مقاطعة للمشاهدة فيه مثار استياء وغضب، وكان ذلك مهما بصفة خاصة للنساء اللاتي تمحورت حياتهن حول العمل المنزلي ولكنه لعب أيضا دورا في حياة الرجال والأبناء، والواقع أن الأسئلة المتصلة بمن يشاهد ماذا في التلفزيون؟ ومتى وأين؟ كانت محور سياسة الأسرة، وقد شجعت التواصل بين أفراد الأسرة و عطلته في آن واحد.[19]

وفي سنة 1998 قام الباحث **عبدالرحمن عزايري** في دراسة تحت عنوان "المقاربة الاثنوغرافية للتلقي المباشر للفضائيات التلفزيونية في وسط الأسر المغربية"، التعرض إلى التفاعلات الأسرية مع الفضائيات التلفزيونية في سياق أسري، وفي ظل الخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي، واستخدم الباحث المقاربة الإثنوغرافية التي تهتم بمختلف أنماط تلقي الرسائل الإعلامية في ظل نظرية التلقي التي تعتبر المتلقي إيجابي، كما قام بدراسة 12 أسرة مغربية واستعان بالتحليل الكيفي باستعمال أداة الملاحظة بالمشاركة كأداة أساسية في البحوث الإثنوغرافية، وتوصل إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- يفضل أفراد الأسرة المغربية مشاهدة البرامج التلفزيونية مشاهدة جماعية أكثر من المشاهدة الفردية، والتي تتم وفق ضوابط اجتماعية وثقافية، تلعب دور في اختيار القنوات التلفزيونية والبرامج المشاهدة.

- توصل الباحث على مستوى التفاعلات الأسرية إلى أشكال جديدة للإتصال في وسط العائلة المغربية، خاصة فيما تعلق بمفهوم السلطة، القوة، وغيرها.

- البرامج التلفزيونية المشاهدة من طرف أفراد الأسر المغربية الملاحظة، هي برامج تم اختيارها حسب متطلبات الحياة اليومية للأفراد، ويتم تأويلها وفقا لسماتهم الثقافية والإجتماعية.

- استطاع التلفزيون أن يؤدي إلى ظهور سلوكيات جديدة في وسط أفراد الأسرة المغربية سواء من حيث البرامج أو القنوات الوطنية المغربية خاصة في مجال العلاقات الإجتماعية.[20]

ومع بداية العشرية التاسعة من القرن الماضي، عرفت دراسات الاستعمالات المنزلية لتكنولوجيات الإعلام والاتصال تطورا آخر، يتعلق بتسييق دراسة استهلاك التلفزيون في إطار اجتماعي-تقني وثقافي أوسع والالتزام بعمل إمبريقي إثنوغرافي من شأنه أن يساعد على فهم ظاهرة التلقي المعقدة و إدراك ديناميكية منزلية التكنولوجيات داخل العائلات، أي إدماج هذه التكنولوجيات في الفضاء الأسري اليومي، والكيفية التي تعمل بها كل عائلة في إدارة فضائها الاجتماعي والتكنولوجي، وينبغي أن تفهم دلالات التلفزيون كخصوصيات صاعدة للممارسة المسيقة للتلقي وأن هذه الممارسات تشكل داخل المحيط الاجتماعي الجزئي الذي تكونه الأسرة والتفاعلات التي تجري في هذا المحيط.

خاتمة:

نزعت الخيارات المنهجية الحديثة لأبحاث التلقي إلى التوجه الاثنوغرافي الذي تجاوز حدود التوجه الامبريقي المفرط في استخدام النتائج الكمية والعناصر الاحصائية ، دون مراعاة السياقات الاجتماعية المتعددة التي تحدث فيها عمليات الاتصال بأنواعها المختلفة. و تتضمن المنهجية الإثنوغرافية (**Ethnométhodologie**) في دراسات التلقي، تحديد إثنوغرافيا الجمهور وإجراء تحريات علمية حول أنظمة التأويل والعمليات التي يقوم بها المتلقون. وتستند خطوات البحث إلى مختلف وحدات التحليل: الفرد باعتباره موضوع اجتماعي وذات فردية **Social Subject & Individual Subjectivity** ، والجماعة والعلاقات ما بين الذات المشتركة (**Intersubjective**) في تجربة الحياة اليومية للجماعة وهو ما يعني أن المنظور الإثنوديولوجي وتحديدًا أدوات البحث الإثنوغرافية صممت بالكامل للسماح بالوصول إلى المجالات "الطبيعية" وخصائصها، إذ تسمح المقاربة الإثنوغرافية في سياق إشكالية التلقي التي تحاول فهم التلقي اليومي لوسائل الإعلام بدخول عوالم الأسر، في سياق إطار نشاطها الفردي والاجتماعي، لوصف هذه الأعمال، كما تتضمن الدراسات الإثنوغرافية للجماهير "النزول إلى الميدان" لمحاولة وصف وتفسير ممارسات الموضوعات في سياقها الثقافي، استنادا إلى ملاحظات الأنشطة اليومية التي تتيح تسهيل فهم الصلات بين الجوانب المختلفة للظاهرة قيد الدراسة، و بشكل عام ، تساعد المقاربة الاثنواغرافية على فهم وتحديث العمليات والممارسات التي تكتسب من خلالها وسائل الإعلام و التكنولوجيات الحديثة للاتصال معان ورموز ، فالمقاربة الاثنوغرافية ببعديها الوصفي و التأويلي حسب دافيد مورلي توفر إمكانية "مشاهدة التلفزيون" في سياق أوسع يدرس الاستهلاك كرمز أو كمشارك في خلق عالم رمزي للمعنى.

ورغم تعدد أهميتها في بحوث الاعلام والاتصال ، وذلك لقدرتها على تجاوز سلبيات استخدام البحوث الكمية وإشكالية تمثيليثية عيناتها ، تواجه المقاربة الاثنواغرافية انتقادات حول انتقاء مجتمعات الدراسة ومداها وعينتها التي تكون في الغالب ضيقة للغاية وتحد من نطاقها.

6. قائمة المراجع: ت1تتبع

1. الخشاب أحمد، **دراسات أنثربولوجيا**، ،ط1، ، دار المعارف، مصر. 1970.
2. الغامري محمد حسن، **طريقة الدراسة الأنثربولوجية الميدانية**، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، مصر، 1985.
3. العثمان أحمد وسام ،**المدخل إلى الأنثربولوجيا**، الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق، 2002.
4. ألان روبرت، **التلفزيون والنقد الميني على القارئ** ، تر: حياة جاسم محمد،، سلسلة دراسات إعلامية، الألكسو، تونس،1997.
5. باكر كريس، **التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية**، تر: علاء أحمد إصلاح، ط1، ، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2000.
6. دينس ماكويل ، سفن ويندل، **نماذج الاتصال في الدراسات الإعلامية**، تر: بيت العال احمد حمزة، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض،1997.
7. فكار رشدي، **عن الحوار الحضاري في بعد واحد**، ، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت،1988.
8. قسايسية علي، **جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها**، ، ط1، ، دار الورسم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
9. ماتلار أرمان وميشال، **تاريخ نظريات الاتصال**، تر. نصر الدين العياضي والصادق رابح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
10. محجوب محمد عبده، **مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية(منهج وتطبيق)**،وكالة المطبوعات، الكويت، 1974.

11. محجوب محمد عبده، ، **اثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية**، ، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2008.

12. منصور هالة، **محاضرات في علم الانثربولوجيا**، ، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998.

13. وصفي عاطف، **الأنثربولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.

14. Beaud Stephane, Florence Weber , Guide de l'enquête de terrain, , Edition la découverte, Paris, 1997.

15. Marcel Mauss. Manuel d'ethnographie, petite bibliothèque Payot, Paris, 1967.

16. Ezzairi Abderrahmane , Approche ethnographique de la réception directe par satellite des télévisions transnationales en milieu familial marocain, Thèse doctorat, département de communication, Faculté des arts et des science, université de Montréal, canada, Décembre 1998.

7. هوامش:

[1] رشدي فكار، **عن الحوار الحضاري في بعد واحد**، ، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت،1988، ص22.

[2] **Stephane Beaud , Florence Weber, Guide de l'enquête de terrain, Edition la découverte, Paris** 1997**,, p.94**

[3] أحمد الخشاب، **دراسات أنثربولوجيا**، ،ط1، ، دار المعارف، مصر. 1970، ص25.

[4] أحمد الخشاب، المرجع نفسه، ص ص 11،12.

[5] محمد عبده محجوب، **مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق)**،وكالة المطبوعات، الكويت، 1974، ص ص 13، 14.

[6] محمد عبده محجوب، **اثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية**،ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2008، ص08.

[7] علي قسايسية، **جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها**، ، ط1، ، دار الورسم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012 ، ص125.

[8] أحمد وسام العثمان ، **المدخل إلى الأنثربولوجيا**، الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق، 2002، ص72.

[9] **Mauss Marcel, Manuel d'ethnographie, petite bibliothèque Payot, Paris, 1967,P.13**

[10] العثمان أخمد وسام، **المدخل إلى الأنثربولوجيا**، المرجع نفسه، ص118.

[11] عاطف وصفي، **الأنثربولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1971ص285.

[12] محمد حسن الغامري، **طريقة الدراسة الأنثربولوجية الميدانية**، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، مصر، 1985، ص44.

[13] هالة منصور، **محاضرات في علم الانثربولوجيا**، ، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998ص112.

[14] أحمد وسام العثمان، المرجع السابق، ص124.

[15] ماكويل دينس، سفن ويندل، **نماذج الاتصال في الدراسات الإعلامية**، تر: بيت العال احمد حمزة، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض،1997، ص217.

[16] أرمان ماتلار وميشال، **تاريخ نظريات الاتصال**، تر. نصر الدين العياضي والصادق رابح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 122.

[17] روبرت ألان ، **التلفزيون والنقد المبني على القارئ**، ، تر: حياة جاسم محمد،، سلسلة دراسات إعلامية، الألكسو، تونس،1997، ص 23.

[18] أرمان ماتلار وميشال، **تاريخ نظريات الاتصال**، المرجع نفسه، ص 125.

[19] كريس باكر ، **التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية**، تر: علاء أحمد إصلاح، ط1، ، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2000، ص196.

[20] **Abderrahmane Ezzairi, Approche ethnographique de la réception directe par satellite des télévisions transnationales en milieu familial marocain, Thèse doctorat, département de communication, Faculté des arts et des science, université de Montréal, canada, Décembre 1998, p.11**